

منبر المحراب

التواضع برنامج الفرد لتربية المجتمع

السنة الخامسة عشرة

العدد ٨٠٧-١٢ / ذو القعدة / ١٤٢٩ هـ

الموافق ١١/ تشرين الثاني / ٢٠٠٨ م

محاور الموضوع الرئيسية:

- ١- التواضع صفة عباد الله تعالى
- ٢- أهمية التواضع وثماره
- ٣- علامات التواضع

الهدف: التعرف الى مفهوم التواضع

وآثاره النفسية والاجتماعية

تصدير الموضوع: أنه عن الإمام

علي بن موسى الرضا عليه السلام قال عندما سُئِلَ: «مَا حُدُّ التَّوَّاضُعِ الَّذِي إِذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ مُتَوَاضِعاً؟» فَقَالَ: «التَّوَّاضُعُ دَرَجَاتٌ مِنْهَا أَنْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ قَدْرَ نَفْسِهِ فَيَنْزِلُهَا مِنْزِلَتَهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ لَا يَجِبُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا مِثْلَ مَا يُؤْتَى إِلَيْهِ، إِنْ رَأَى سَيِّئَةً دَرَأَهَا بِالْحَسَنَةِ، كَاطِمٍ الْغَيْظَ، عَافٍ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (أصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٤).

مقدمة: «التواضع» من مادة «وضع»،

وهي في الأصل بمعنى وضع الشيء إلى الأسفل. وعندما تُطلق هذه الكلمة ويُراد بها صفة أخلاقية في الإنسان فإنَّ مفهومها أنَّ الإنسان ينخفض بنفسه عن مكانته الاجتماعية، (فالتواضع عبارة عن الانكسار النفسي الذي لا يرى معه الإنسان نفسه أعلى من الآخرين ولازمه أن يتحرك الشخص تجاه الآخرين من موقع الاحترام والتعظيم لهم بكلماته وأفعاله) (معراج السعادة، ص ٣٠٠). وهو خلق كريم، وخُلة جذابة، تستهوي القلوب، وتستثير الإعجاب والتقدير، ونهايك في فضله أن الله تعالى أمر حبيبه، وسيد رسله ﷺ بالتواضع، فقال تعالى: «واخفض جناحك



و(هون) مصدر بمعنى الهدوء والليونة والتواضع. واستعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل هنا لغرض التأكيد، أي أنَّهم يعيشون التواضع والهدوء إلى درجة وكأنهم عين التواضع، ولهذا السبب تستمر الآية في سياقها بالقول «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً»؛ أي لو واجههم الجهلاء والأراذل من الناس من موقع الشتيمة والكلام الباطل فإنَّ جوابهم لا يكون إلا بعدم الاعتساء وغمض الطرف من موقع عظمة شخصيتهم وكبر نفوسهم.

- قوله تعالى: «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا»: ولا يخفى أنَّ المقصود بقوله: «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» ليس هو المشي في حالة التواضع فحسب، بل المقصود نفي كل نوع من التكبر والأنانية والسلوكيات السلبية النابعة من حالة التكبر السلبية والتي تتجلى في أعمال الإنسان وأفعاله الأخرى. وذكرت الآية المشي باعتباره نموذجاً عملياً للدلالة على وجود التواضع كملكة نفسانية لدى هؤلاء، لأن الملكات الأخلاقية تتجلى دائماً في كلمات الإنسان وحركاته الخارجية إلى درجة أنَّه في الكثير من الحالات يُستدل على وجود أنواع من الصفات الأخلاقية في الشخص بواسطة المشي.

وعن أبي ذر الغفاري: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل، فطلبنا إليه أن يجعل مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه، فبينما له دكاناً من طين فكان يجلس عليها، ونجلس بجانبه.

جاء عن النبي الأكرم ﷺ قال: «يُباهي الله تعالى الملائكة بخمسة: بالمجاهدين، والفُقراء، والَّذِينَ يَتَوَاضَعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى....» (مكارم الأخلاق، ص ٥١).

لمن اتبعك من المؤمنين. «وكان النبي ﷺ أشدَّ الناس تواضعاً. وكان إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس حين يدخل. وكان يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويحمل بضاعته من السوق، ويجالس الفقراء. وكان ﷺ إذا سارَ أحد، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وما قعد إليه رجل قعد فقام ﷺ حتى يقوم، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبادئ أصحابه بالمصافحة، ولم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه، يكرم من يدخل عليه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويكني أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرماً لهم، ولا يقطع على أحد حديثه، وكان يقسم لحظاته بين أصحابه، وكان أكثر الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً.

١- التواضع صفة عباد الله تعالى:

قال الله تعالى: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» (سورة الفرقان، الآية ٦٣).

نجد في هذه الآية إشارة واضحة إلى الصفات البارزة والفضائل الأخلاقية لجماعة من عباد الله تعالى الذين وصلوا في سلوكهم المعنوي إلى مرتبة عالية من الكمال الإنساني والإلهي. كما نقرأ في آيات سورة الفرقان من (الآية ٦٣ إلى الآية ٧٤) اثنتي عشرة فضيلة مهمة وكبيرة لهؤلاء الأشخاص. والملفت للنظر أنَّ أول صفة تذكرها الآية لهؤلاء هي صفة التواضع، وهذا يدلُّ على أنَّ التكبر كما يمثل أخطر الرذائل الأخلاقية، فكذلك التواضع يمثل أهم الفضائل الأخلاقية في واقع الإنسان وحركته الاجتماعية والمعنوية، حيث تقول الآية (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا).

إليه يصعد الكلم الطيب

٢ - أهمية التواضع:

أما عن أهمية التواضع فقد وردت تعبيرات جميلة وجذابة في الروايات الشريفة منها :

في التواضع حلاوة العبادة: ورد في الحديث الشريف أنّ رسول الله قال يوماً مخاطباً أصحابه : « مَا لِي لَا أَرَى عَلَيْكُمْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ ؟ قَالُوا : وَمَا حَلَاوَةُ الْعِبَادَةِ ؟ قَالَ : التَّوَاضُّعُ ! » (المحجّة البيضاء، ج ٦، ص ٢٢٢) . ولا يخفى أنّ حقيقة العبادة هي غاية الخضوع أمام الله تعالى. فالشخص الذي ذاق حلاوة الخضوع والتواضع مقابل حقيقة الألوهية والذات المقدسة فإنه سيتعلّى أيضاً بالتواضع مع الخلق. وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) : « عَلَيْكَ بِالتَّوَاضُّعِ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَةِ » (بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٩، ح ٥) .

التواضع نعمة: وورد عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) : « التَّوَاضُّعُ نِعْمَةٌ لَا يَحْسُدُ عَلَيْهَا » (تحف العقول، ص ٢٦٣) . ومن الطبيعي أنّ كلّ نعمة تصيب الإنسان فإنه سيتعرض في الجهة المقابلة لأذى الحساد حيث تتحرك فيهم عناصر الحسد والكراهية أكثر بحيث يضيق الفضاء على صاحب النعمة ويعيش في حالة من التوتر الذي تفرزه حالة الحسد في الطرف المقابل ولكن التواضع مستثنى من هذه القاعدة فهو نعمة لا تتغير بحسد الحساد .

٣ - ثمار التواضع وآثاره:

للتواضع العديد من الآثار النفسية والتربوية والاجتماعية. فالتواضع تأثير إيجابي في حركة الإنسان الاجتماعية، لأنّ الشخص المتواضع يزيده تواضعه محبة واحتراماً في قلوب الناس، وكذلك يؤثر التواضع تأثيراً إيجابياً في علاقة الإنسان بخالقه لأن التواضع يمثل روح العبادة ومفتاح قبول الأعمال والطاعات. وللإختصار نقتصر على بعض ما ورد في الروايات:

- **المحبة:** عن أمير المؤمنين : « تَمَرَّةُ التَّوَاضُّعِ الْمَحَبَّةُ وَتَمَرَةُ الْكِبَرِ الْمُسَبَّةُ » (غرر الحكم، ح ٤٦١٤، ٤٦١٣) .

- **انتظام الأمور:** وفي حديث آخر عنه (عليه السلام) قال : « يَخْفُضُ الْجَنَاحُ تَنْتَظِمُ الْأُمُورُ » (غرر الحكم، ح ٤٣٠٢) .

- **الرفعة:** عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « التَّوَاضُّعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رَفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعَكُمْ اللَّهُ » (كنز العمال، ح ٥٧١٩) .

- **قبول الطاعات:** ويستفاد من الأحاديث الإسلامية أن التواضع شرط في قبول العبادات والطاعات ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال : « التَّوَاضُّعُ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ نَفِيسٍ وَمَرْتَبَةٍ رَفِيعَةٍ... وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ شَرَّفَهُ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ... وَلَيْسَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَةٌ يَقْبَلُهَا وَيَرْضَاهَا إِلَّا وَبَابُهَا التَّوَاضُّعُ، وَلَا يَعْرِفُ مَا فِي مَعْنَى حَقِيقَةِ التَّوَاضُّعِ إِلَّا الْمُقَرَّبُونَ الْمُسْتَقْلُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » (بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٢١٢) .

- **الحكمة:** عن السيّد المسيح (عليه السلام) قال : « بِالتَّوَاضُّعِ تَعْمُرُ الْحُكْمَةُ لَا بِالتَّكَبُّرِ، كَذَلِكَ فِي السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعُ لَا فِي الْجَبَلِ » (بحار الأنوار، ج ٢، ص ٦٢) .

٤ - علامات التواضع:

وبالنسبة إلى علامات التواضع فقد وردت روايات لطيفة وجميلة في الكتب الإسلامية، ففي حديث عن الإمام علي بن أبي طالب نقرأ : « ثَلَاثُ هُنَّ رَأْسُ التَّوَاضُّعِ : أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلَامِ مِنْ لِقَائِهِ، وَيَرْضَى بِالذُّونِ مِنْ شَرَفِ الْمَجْلِسِ، وَيَكْرَهُ الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ » (كنز العمال، ح ٨٥٠٦) .

وفي بعض الروايات نقرأ علامات أخرى أيضاً للتواضع منها ترك المراء والجidal، أي أنّ الإنسان لا يدخل في مناقشة وجدل فكري من أجل إشباع رغبة التفوق على الآخرين وإظهار فضله عليهم، ومن العلامات الأخرى عدم الرغبة في ثناء الناس عليه ومدحهم له.

التواضع في سلوك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته

وسيرتهم:

- **رُوي أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في سفر، فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله عليّ ذبحها، وقال آخر: عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): وعليّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك، فقال: قد علمت أنكم تكفونني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه، وقام فجمع الحطب.**

- **كان أمير المؤمنين (عليه السلام) في سمو أخلاقه وتواضعه، قال ضرار وهو يصفه (عليه السلام):**

« كان فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتينا، ويجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوانا، وينبئنا إذا استبأننا، ونحن والله مع تربيته إيانا، وقربه منا، لا نكاد نكلمه هيبه له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطعم القوي في باطله، ولا يياس الضعيف من عدله. »

- **وقال الإمام الصادق (عليه السلام):** « خرج أمير المؤمنين (عليه السلام) على أصحابه، فمشوا خلفه، فالتفت إليهم فقال: لكم حاجة؟ فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكننا نحب أن نمشي معك. فقال لهم: انصرفوا، فإن مشي الماشي مع الراكب، مفسدة للراكب، ومذلة للماشي. »

- **ومن تواضع الإمام الحسين (عليه السلام):** أنه مرّ بمساكين وهم يأكلون كسراً لهم على كساء، فسلم عليهم، فدعوه إلى طعامهم، فجلس معهم وقال: لولا أنّه صدقة لأكلت معكم. ثم قال: قوموا إلى منزلي، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم.

- **ومن تواضع الإمام الرضا (عليه السلام):** قال الراوي: كنت مع الرضا (عليه السلام) في سفره إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقلت: جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة، فقال: مه، إنّ الرب تبارك وتعالى واحد، والأم واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال.

